

## ثقافة أبي تمام وأثرها في تعقيد شعره للأستاذ دريني خشبة

بخير شعرائه المحدثين ... وافتخر المؤلف بأن الإنجليز قراء مهرة،  
وأهمهم سريمو الإدراك . أو : Quick in the up-take كما يعبر  
هو ، فالشاعر الذي يكفهم مؤنة التفكير في شعره يجعله واضحاً ،  
أو بإسرافه في جعله واضحاً هو أسخف الشعراء في نظارهم ، لأن  
شعره هذا السهل المشرق الصافي ينم أذهانهم ولا يكدها ...  
وهم يكرهون ألا تُكده أذهانهم بما يقرأون ... ثم ينظر  
مورى فيقرر أنه ما على الشاعر إلا أن يُفوض في شعره بعض  
الغموض ، أو كل الغموض ، ليخضع هؤلاء الإنجليز عن أنفسهم  
— وربما عن نفسه — وليفوز بهم بالمكانة العليا ، ومنزلة  
الشاعر العبقرى !

أما عندنا ، فنحن نضيق بالشاعر التامض ونلغنه ... ويظهر  
أن في طبيعة أمزجة الشعوب العربية ما يجلب إليها اليسر والريح ،  
ويزدها في العناء في التفكير ... وذلك لأن طبيعة البيئة في  
أوطان تلك الشعوب سهلة غير معقدة ، شأنها في اليونان وفي  
إنجلترا ، حيث اختلاف المناظر وكثرتها وتمييزها أحياناً بورت  
اليونانيين والإنجليز مزاجاً أعمق وتفكيراً أهدأ ، وأشد غوراً ،  
فلا يضيقون بالغموض في شعر شعرائهم ، بل يفرمون به ،  
في حين يضيقون بالشعر السهل الواضح الذي لا مجال فيه لإعمال  
الفكر ، ويمدون شعرهم سخيلاً قليل الخطار منخفض الدرجة .  
ولست أعلل ثورة دعبل وابن الأعرابي والآمدى ومن

منذ عهد قريب كنت أقرأ ذلك الكتيب الصغير الذي  
كتبه جلبرت مورى عن بطل الدراما اليونانية. الأشهر  
يوربيدز فلغقت نظري عبارة عجيبة المؤلف نسب فيها انصراف  
اليونانيين عن شاعرهم العظيم الخالد وقلة احتفالهم بفنه المسرحي  
من وجهتيه الشكلية والموضوعية إلى جملة أسباب كان أهمها  
« وضوحه » ، ووصوله بسرعة إلى أفهام النظارة ... ثم  
تكلم مورى بهذه المناسبة عن الأمة الإنجليزية ، فذكر أن  
الإنجليز مثل اليونانيين القدماء ، يكرهون أن يكون الشاعر  
واضحاً<sup>(١)</sup> ، ويؤثرون أن يكون في الشعر بعض الغموض ، أو  
كثير من الغموض ، الذي يستثير العقل ويحفزه إن كان خامداً ،  
ولا بأس أن يُعتميه ، بل أن يضلّه أحياناً ، أما الشعر العادى  
— يقصد الواضح السهل الذي لا يحشم القارى نصيباً — فهو  
أسخف ألوان الشعر في نظر هذه الأمة العجيبة التي أمدت العالم

(١) ص ١٣ Euripides & His Age

وأكثر كتبنا تباع في بلاد الشرق والأقل منها يباع  
في مصر . وأكثر الكتب رواجاً هي بلا شك الكتب الدينية ...  
وتجد الجرميات المستشرقة في أوروبا أكبر عون في حكوماتهم  
لطبع الكتب العربية النادرة ، ولذلك فإن أهم دواوين العرب  
وآثارهم . كان أول ظهورها في أوروبا ، وأوربا هي التي أحيت  
آدابنا ونشرتها نشرًا علمياً ، هذه حقيقة مؤلمة تجب مواجهتها  
وفي مصر لا تتألف جمعية علمية أو مجمع أو معهد ثقافى  
أو لجنة استشارية إلا ويصبح فيها أصحاب الأبهات والناسب  
أكثرية ، ورجال الفن أقلية ، والظل الأعوج يتبع المود  
الأعوج .

تأليف كتاب أو ألف كتاب يكتفى لا كتناسلهم صفة الأدباء .  
وفريق الأدباء الذين وصلوا بطرق ملتوية إلى الشهرة واعتصموا  
اعتصاماً ، فأولئك يزعمهم ويقض مضاجعهم أن يتنافس أو يتكلم  
كل أديب صادق النسب ، فهم لا يفتأون يتقللون ويتململون  
وراء ابتسامتهم الصفراء .

فالأديب في مصر لا يجد عوناً من أهل صناعته ، ولا يجد  
عوناً من الجمهور ، لأن الطبقة المستنيرة لا تعد إلا بالئات في حين أنها  
في البلاد الغربية تمد بمئات الآلاف ... بل ولا يجد عوناً من  
أصحاب المسكاتب والناشرين ، فأكثر الآخرين أميون أو شبه  
أميين لا يهمهم من نشر الكتب إلا الربح والتجارة. ولو ظهرت  
الكتب مشحونة بالأغلاط ممسوخة ... وقد عرض أحدهم على  
مؤلف قبل الحرب أن يطبع له كتاباً ويعطيه خمسه جيني ا

الجامع الكبير ، أو مسجد عمرو بالفسطاط مستميناً عليها بسقاية الماء ... ثم شد رحله إلى المشرق بمد أن تمكن من نظم الشعر في مصر تمكناً جعله سيد شعراء عصره عشرين عاماً كاملة بإجماع النقاد . فإذا عرفنا أن أبا تمام لم يتجاوز الأربعين ، أو تجاوزها قليلاً ثم مات . . . عرفنا أنه تقف الشعر في مصر . وحصل جميع علومه في مصر . وأن مصر قد صنعت الجزء الأكبر من أدب أبي تمام وعلمه وشعره . وأنه حينما سافر إلى العراق سافر إليه وقد نضج عقله رقبته بكل ما كانا يفيزان به من علم وشعر . فان يكن قد انتفع في بغداد والبصرة والكوفة بعلم أو أدب . فليس يعدو ذلك اطلاع الأديب الذي اشتد عوده والذي لاغنى لتفاوته عن مواصلة القراءة ... والمقارنة بين مدارس الفكر المختلفة . بتقلب من أجلها بين البلاد :

خليفة الخضر من يربع على وطن

في بلدة ، فظهور الميس أوطاني

بالشام أهلى . وبغداد الهوى . وأنا

بالرقتين . وبالفسطاط إخواني

وما أظن النوى رضى بما صنعت

حتى تُشافه بي أقصى خراسان

خلفت بالأفق الغربي لى سكنا

قد كان عيشى به حلواً بجلوان<sup>(١)</sup>

فإخوان أبي تمام الذين تركهم وراءه في مصر هم أخدان

الصبا وأصدقاء الشباب وشركاؤه في أيام الدرس والتحصيل ...

وطالما تذكروهم أبو تمام بمد ذلك ، وسجل ذكره لهم في شعره :

ذو الود منى وذوالقربى بمنزلة وإخوتى أسوة عندى وإخوانى

في دهري الأول الذموم أعرفهم

فألآن أنكرهم في دهري الثاني ؟

عصابة جاوزت آدابهم أدنى

فهم وإن فرقوا في الأرض جيرانى ؟

أرواحنا من مكان واحد وغدت

أبداننا بشام أو خراسان

ورب نائى الفانى روحه أبدا

لصيق روى ودان ليس بالذاني<sup>(٢)</sup>

(١) من مدحة لأبي تمام في محمد بن حسان الضبي

(٢) من مدحة له في سليمان بن وهب

إليهم ممن قدحوا في شعر أبي تمام وعابوه بالعموض ، والبمد عن عمود الشعر العربى إلا بطبيعة هذا المزاج المشرق المرح ، الذى يستمد كيانه من طبيعة بيئة الشعوب العربية . . . ويتجلى ذلك المزاج في تلمس الأمدى للبحترى ، في كتابه « الموازنة بين أبي تمام والبحترى » ، وتفصيله شعر البحترى لمهولته ووضوحه وإشراقه ، والتواء شعر أبي تمام وتمقده وعموضه ، وثورته على طبيعة الفهم العربى الوداع المرح الذى يبغض الالتواء والتعميد والعموض . وقد رزق الله أبا تمام كثيرين من النقاد العرب الذين هبوا يناخون عنه ويدافعون عن طريقته ، وفي مقدمتهم ، أو على رأسهم ، أبو بكر محمد بن يحيى الصولى ، صاحب كتاب « أخبار أبي تمام » الذى برهن بدفاعه المجيد عن شاعرنا الخالد على أن فينا أمزجة تشبه هذه الأمزجة اليونانية والإنجليزية المولعة بالعموض في الشعر ، التى تؤثر الالتواء والتعميد فالحمد لله ، وشكراً لأبي بكر الصولى !

\*\*\*

وأكثر المؤرخين على أن أبا تمام ولد في جاسم إحدى قرى

دمشق ، وأقلهم - وفيهم صاحب الأغاني - على أنه ولد في

إحدى قرى منبج

وأكثر المؤرخين على أنه عربى من قبيلة طيء ، وأكثر

هو من الفخر بذلك في شعره . . . ثم أقلهم على أنه ليس من

طيء في الذيل ولا الذؤابة ، بل إنه ابن رجل يونانى نصرانى

أسلم ، وكان يدعى « تدوس » أو تيودوس فمدل به أبو تمام

إلى أوس ، فصار يدعى أبا تمام حبيب بن أوس الطائى ، فراراً

عن هذه اليونانية التى كانت تكون له شرفاً لو أنها صحيحة ،

لا عاراً كما أراد أعداؤه أن ينالوا منه ، ويقدحوا في نسبه ،

لأن ذلك يزكى مذهبه في الشعر ويجعل له أصولاً وراثية من دماء

هؤلاء اليونانيين الذين غصوا من شعر يوربيدز في عصره

لسهولته ووضوحه وبسره

وسافر أبو تمام إلى مصر بمد أن أيفع بالشام ، وكان أبوه

خماراً ، وكان هو خائسكا ، كما جاء في تاريخه المضطرب . . .

وأكبر الظن أنه لذلك لم ينتفع في الشام بعلم ولا أدب ، وأن

السنوات الخمس التى عاشها في مصر كانت فترة التعليم الجامعى

الذى انتفع به أبو تمام ، وشدا منه تلك الذخيرة من دروس

ابن الوليد، وكان أبو تمام يمجب بهما ويسطو على آثارهما،  
ينهب منها ما يشاء. فينمض فيه، ويزيد عليه، ثم  
يفرب ويغلو في الإغراب، حتى تكون البضاعة له خاصة آخر  
الأسر: وفي ذلك يقول الصولي في رسالته إلى مزاحم بن فائق:  
« وليس أحد من الشعراء - أعزك الله - يعمل الممانى  
ويخترعها ويتكبر على نفسه فيها أكثر من أبي تمام؛ ومتى أخذ  
معنى زاد عليه، ووشحه بيديه، وعم معناه، فكان  
أحق به... »<sup>(١)</sup>

وسئل دعبل - أشد خصوم أبي تمام - عن شعره فقال:  
ثلث شعره سرقة، وثلثه غث، وثلثه صالح<sup>(٢)</sup>

وأشده ابن الأعرابي شعراً لأبي تمام فقال: إن كان هذا  
شعراً فما قالته العرب باطل<sup>(٣)</sup>

ولأبي العنبيس، ولابن مهرويه، كلمات في أبي تمام من هذا  
القبيل، ولم يكن أحد ينتصف لأبي تمام بمثل ما انتصف له الصولي  
فكيف يكون العراق وطن أبي تمام العقلي، وقد كان مذهبه  
في الشعر غربياً على العراق إلى هذا الحد؟  
(يشيع)

وربني فمشية

(١) أخبار أبي تمام ص ٥٣

(٢) و (٣) ص ٢٤٤

## وزارة المالية

تقبل إدارة التوريدات العمومية  
لنفاية ظهر يوم الخميس الموافق ١٨  
يناير سنة ١٤٤٥ عطاءات عن توريد  
ورق لازم للمطبعة الأميرية لمقام  
٤٤ - ١٩٤٥ ويمكن الحصول على  
قائمة المناقصة وشروط العطاء من  
الإدارة المذكورة مقابل مائتي  
مليم .  
٢٨١٤

ولله ما أسعد تلك العصابة من الأصدقاء الأوداء الذين  
تجاوز آدابهم، وتنافس ثقافتهم، وتسفر بينهم قصائد الشعر  
ورسائل الأدب... وقد ثبت أن أبا تمام قد نظم كثيراً من غرر  
شعره وهو في مصر، وأنه عند ما ذهب إلى العراق وأخذ في  
إنشاد أشعاره، وقف الناس منها موقف الشدرة الذي يرى فيها  
شيئاً جديداً لم تتعوده أذنه، ولم يعرفه فيما عرف من أشعار العرب  
فكان الذي يستطيع فهمها يستحسنها، ويشهد لها بالجدّة  
والجمال، أما الذين كانت تستمعي عليهم، وتضيق بها أخيلتهم،  
فكانوا يشقون في إنكارها كما يشقون في خصومة ناظمها،  
وإن كان بعض الطاعنين على أبي تمام لا يملك أحياناً إلا أن  
يصفق له... وقد كان أبو بكر الصولي ليقاً في سوق أمثلة ذلك.  
ولهذا ففتح يرى أن أبا تمام قد ذهب إلى العراق حينما ذهب  
إليه، بفن جديد أنشأه في مصر، وضع فيها أصوله، وقعد  
قواعده، ووشاه بذوقه المتفرد المفتن الجبار... وحسبنا أن قرأ  
قصائده الأولى التي أنشدها في العراق لتعلم كيف فجأ الناس بها  
وبما تضمنته من غرائب هذا الفن الجديد العجيب... وليس  
يصح في الأذهان أن أبا تمام ابتدع ذلك كله بالعراق فجأة، لأن  
قصائده الأولى هذه تشبه قصائده الأخيرة في كل مشخصاتها  
ومقوماتها، وربما كان بعض المتقدم منها أجود من بعض  
التأخر

ولعل القارئ يسأل: ما بالنا نهديء في ذلك ونعبد، وماذا  
نبتنى من إثبات فضل مصر على أبي تمام؟ والجواب على هذا  
لا يخلو من أن نشطب على أستاذنا الدكتور طه حسين الذي  
أنكر هذا الفضل على مصر، وجعل العراق وحده هو الوطن  
العقلي لأبي تمام، وذلك في محاضراته التي ألقاها عن أبي تمام  
وضمنها كتابه الفريد المفيد « من أحاديث الشعر والنثر » ونعود  
فقول إن السنين العشرين التي تفرد فيها أبو تمام بجوائز الملوك  
والأمراء، والتي كان فيها جميعاً فارس حلبة الشعر، قد بدأت  
حينما بدأ أبو تمام حياته في العراق، وهو إذ ذاك في حدود  
العشرين من عمره أو فيما يقاربها، فأين إذاً غراسه الأول  
إن لم يكن قد نما واشتد وآتى أكله في مصر؟

ونحن لا ننكر أن أساتذة أبي العلاء في الشعر العربي لم يكونوا  
من المصريين، لأن أحدهما هو أبو نواس، والثاني هو مسلم